الفصل الرابع والثلاثون

زبيدة بنت جعفر

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور وابنة عم الرشيد أخي أبيه تزوجها سنة ١٦٥هـ. وهي تفاخر بنسبها الهاشمي سائر نساء الرشيد لأنهن من أمهات الأولاد، ولذلك كانت عنده في المنزلة الأولى. وكانت جميلة الصورة واسمها الأصلي أمة العزيز، فلقبها جدها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها. وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد وهو يتبرك بمشورتها، ولها في الإسلام مآثر لم يسبقها إليها أحد.. مثل حفرها للعين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل منخفض ومرتفع وسهل وجبل حتى أخرجتها مسافة اثني عشر ميلًا إلى مكة، فبلغ ما أنفقته ١٧٠٠٠٠٠ دينار، فضلًا عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما أنفقت الألوف عليه. غير ما كانت تنفقه على أهل الفاقة.. وكان لها مائة جارية، يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر من القرآن.. حتى كان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة.

وهي أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجواهر، وصنع لها الوشى الرفيع، حتى بلغ ثمن الثوب من الوشى الذي اتخذ لها ٥٠٠٠٠ دينار. وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، وأول من اصطنع القباب من الفضة والأبنوس والصندل، وكلاليبها من الذهب والفضة ملبَّسة بالوشى والسمور والديباج، وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق.

واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر، وأضاءت شمع العنبر على منائر من الذهب.. وقد تشبه الناس بها في سائر أحوالهم.

وكان لها قصر في بغداد على شاطئ دجلة الغربي يسمى قصر زبيدة ويلقب (دار القرار)، يقع جنوبي قصر الخلد شرقي مدينة المنصور، وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه في تلك الحضارة الزاهرة.

وكانت زبيدة شديدة العصبية لبني هاشم، وفي صدرها حقد على البرامكة وخاصة جعفر بن يحيى الوزير لأنه كان يحط من قدر ابنها الأمين ويرفع من شأن أخيه المأمون، مع أن أمه جارية.. وآخر ما زاد من نقمتها عليه، أنه حمل الرشيد على أن يبايع للمأمون بولاية العهد مع ابنها الأمين، وكانت تحب أن تكون البيعة له وحده. وزد على ذلك أن الرشيد سار سنة ١٨٦هـ إلى الكعبة حاجًا ومعه أبناؤه ووزراؤه وقواده وقضاته، وفي جملتهم ابناه الأمين والمأمون ليعهد لهما بولاية العهد وجعفر البرمكي ليشهد العقد فكتبوا الكتابين وعلقوهما في الكعبة، وحلف كل منهما على الثبات، وكانت زبيدة حاضرة فلما حلف الأمين وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر وقال له: «فإن غدرت بأخيك خذلك الله» وطلب منه أن يحلف على ذلك ثلاث مرات ففعل.. فحقدت زبيدة عليه، وما برحت منذ ذلك الحين تترقب الفرص للإيقاع به.. وربما كانت أكثر أعداء البرامكة حقدًا عليهم، لا تدخر وسعًا في استطلاع أخبارهم لعلها تجد فرصة تتمكن بها منهم. وكانت تعلم أن جعفر يتردد على العباسة، ولكنها لم تكن مطلعة على خبر الطفلين.. ولو علمت ما أحجمت عن كشف أمرهما لزوجها لأنها لم تكن تتهيب منه لما تعلمه من منزلتها عنده.

فلما كان صباح ذلك اليوم وحدث ما حدث من الغوغاء عند دار الرقيق، اطلع على خبر الطفلين أحد جواسيسها عند العباسة.. فنقل الخبر إليها فرأت أن تغتنم أول فرصة لاطلاع الرشيد عليه، ولكنها أحبت أن تفاوض ابنها الأمين في ذلك فأرسلت في طلبه كما تقدم..

وبكَّر الأمين في صباح اليوم التالي إلى دار القرار إجابة لطلب والدته، فركب جواده والغلمان يسيرون في ركابه يتقدمهم فارس يحمل الحربة بين يديه على عادتهم في المسير بين يدي ولي العهد في ذلك الحين. فسار الموكب محاذيًا الشاطئ الشرقي، وعلى الأمين السواد والقلنسوة حتى وصل الجسر السفلي، فقطعه وسار بعده على الشاطئ الغربي حتى أطل على دار القرار والناس يقفون له في الطرق يحيونه ويدعون له بطول البقاء، ولا سيما العرب ومن يرى رأيهم في العصبية العربية.. فيرد تحيتهم وهو مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك.

وكانت زبيدة تنتظر مجيئه، وقد استبطأته مع علمها بطول المسافة بين قصرها وقصره، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وإن قصرت.. وكانت قد أعدَّت له كل أسباب الراحة والأنس والترحاب لشدة تعلقها به لأنه وحيدها، وقد تركَّزت كل آمالها فيه.. فأمرت جواريها ففرشن طرقات الحديقة بالأزهار والرياحين وأعدت له مجلسًا تضوعت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر في غرفة من قصرها سقفها قبَّة مصنوعة من خشب الصندل، ومكسوة بالوشى والسمور وأنواع الحرير بألوانه الزاهية، وقد أسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب أبياتًا من الشعر، أو حكمًا مأثورة، وعلقوها في مواضعها بكلاليب من الذهب، وفي أرض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم أحد ملوك الفرس يصطاد السباع، توهم الناظر من إتقان صنعها أنه يرى منظرًا حقيقيًا. على حواشي البساط أبيات من الشعر مطرزة بالذهب. وفي وسطه صورة طاووس ألوانه منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت مما يبهر النظر..

وكان في قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص، وفرش هذه الغرفة من الطراز المعروف بالأرمني في ذلك العصر من صنع أرمينية، وهو عشر مصليات بمخادعها ومساندها ومطارحها وبساطها كما وصفناه. فمثل هذا الفرش لا يقوم بأقل من ٥٠٠٠ دينار غير البساط وغير ما يكسو القبة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش، وغير ما في جوانبها من المنائر المصنوعة من الذهب، وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من أثمن ما يكون، ولم يستخدمه أحد قبلها إلى ذلك العهد.